



اشكالية الهوية في شعر المهجر العراقي

*د. علي هادي محمد الخفاجي

الباحثة: زهراء عدنان جاسم

جامعة القادسية

تاريخ الاستلام : 2021-12-26

تاريخ القبول : 2022-03-14

ملخص البحث:

ويعدّ الشاعر العراقيّ المهاجر العنصر المغاير في المجتمعات الغربيّة؛ لذلك اختلفت نظرة المهاجر إلى المجتمع ومكان الهجرة، واختلفت نظرة المجتمع الأصل -الغربي- إليه، فقد يُعادي المهاجر ذلك المجتمع أو ينعزل عنه، وقد ينسجم معه. والمجتمع الآخر قد يقبل المهاجر بوصفه عنصرًا يحمل ثقافة مغايرة تغذي الثقافة الأصل بمصادر معلومات وتجارب جديدة، وقد يرفض الاندماج معه، ويرفض أيّ اتصال معه بغية الحفاظ على عاداته وتقاليده.

تتعرّز قيمة الهوية لدى الإنسان في المجتمع العربي بعلاقته بالمكان؛ لأنه يعاني سطوة الكيان الجمعي عليه، وإن أيّ تغييرات قسرية أو اختيارية تلحق بالفضاء المكاني قد تحدث انشراحًا يحول دون ثبات الهوية، وفي هذا البحث نرصد انكسار النمط السائد للدراسات النقدية التي تسلم بمقولة تمسك الشاعر العراقي بهويته الاصلية؛ للاعتزازه بها ورغبه في الحفاظ عليها والتمسك بها ضد عوامل المحو التي يمكن أن تنتجها الغربية، وكسر النمط لا يعني التشكيك في حب الشاعر العراقي المعاصر أو انتمائه لوطنه، وإنما تسليط الضوء على بعض التغييرات التي حصلت له مما دفعته إلى تفضيل مكان المهجر على المكان الاصيلي.



The Problem of Identity in the Poetry of the Iraqi Diaspora

Dr. Ali Hadi Mohamed

Researcher: Zahraa Adnan Jassim

Al-Qadisiyah University

abgd28@gmail.com

+9647828742042

Receipt date: 2021-12-26

Date of acceptance: 2022-03-14

Abstract

In Western societies, the Iraqi immigrant poet is regarded as distinct and significant. As a result, the immigrant's perspective on society and the place of emigration differed, as did the perspective of western origin societies; the immigrant may be hostile to or isolated from that society, or he may be in harmony with it. On the other hand, society may accept the immigrant as a person carrying a different culture that enriches the original culture with new sources of information and experiences, or it may refuse to preserve his customs and traditions.

The value of human identity in Arab society is enhanced by its relationship to place; because he suffers from the dominance of the collective entity over him, and that any forced or voluntary changes to spatial space may result in a splitting that prevents identity stability. In this study, we examine the failure of the prevailing pattern of critical studies, which accepts the statement that the Iraqi poet clings to his original identity. Because of his pride in it and his desire to preserve and adhere to it against the erasure factors that can be produced by alienation, and breaking the pattern does not mean questioning the contemporary Iraqi poet's love or belonging to his homeland, but rather shedding light on some of the changes that have occurred as a result, he preferred the place of exile over the place of origin.

Keywords: identity crisis, alienation, expatriation, exile, integration, nostalgia



المقدمة:

لم يعد المكان بيتًا يذكرنا بأيام الطفولة، أو وطنًا نحتمي بحدوده، ولا عالمًا نسير في مناكبه فحسب، بل أصبح همًا دائمًا يقوِّض وجود الشاعر ويثير عنده تساؤلات عن علاقة الإنسان بالمكان، فنراه دائمًا ما يتساءل لم يثير هذا المكان في النفس الشعور بالكآبة وعدم الراحة؟ ولم تتشرح النفس لذلك؟ ولم أصبح الإنسان مكبلاً في حدود المكان بعد أن كانت الأرض مراغماً وسعة؟ هذه الأسئلة المختلفة في ذهن الشاعر المغترب جعلته يتعامل مع المكان بحرفية عالية، فاستطرق أركانه، وناجى أبعاده، وحاكى نكرياته، فأخرجه إلى أبعاد ذهنية، ونفسية ذات وظائف متعددة.

ويسهم مكان الغربة في تنشيط إحساس الشاعر بالاعتراب، فتعمل المخيلة على إجراء موازنات موضوعية بين مكانين يعيشهما الشاعر في آن واحد، الأول مستمد من الذاكرة متحقق باللغة، والثاني، المكان المعاش مكان اللجوء، فيعمل وعيه على تأييد المكان الجديد، وشحنه بما تحمله الذاكرة عن المكان القديم من قيم ومشاعر، ويشهد التنقل بين المكانين القديم/مكان الطفولة، والآني تحولات في قيمة المكان يرصدها الشاعر.

ويعدّ الشاعر العراقيّ المهاجر العنصر المغاير في المجتمعات الغربية؛ لذلك اختلفت نظرة المهاجر إلى المجتمع ومكان الهجرة، واختلفت نظرة المجتمع الأصل -الغربي- إليه، فقد يُعادي المهاجر ذلك المجتمع أو يعزل عنه، وقد ينسجم معه. والمجتمع الآخر قد يقبل المهاجر بوصفه عنصراً يحمل ثقافة مغايرة تغذي الثقافة الأصل بمصادر معلومات وتجارب جديدة، وقد يرفض الاندماج معه، ويرفض أيّ اتصال معه بغية الحفاظ على عاداته وتقاليده.

ينظر بعض الشعراء إلى المكان بوصفه محايداً مُفرغاً من الشّحنات القبليّة، والإنسان هو الذي يفرض سلطته عليه، فلا فرق بين الوطن المهجر والوطن الأمّ، فكلاً أماكن تحقّق للذّات وجودها شريطة إبعاد سطوة الماضي. وراح بعض الشعراء يفضلون المكان الجديد على وطنهم الأمّ بعد إجراء موازنات منطقيّة بين معاناتهم في وطنهم، وحالة الرّخاء والحرية التي يتمتعون فيها في بلد المهجر.

إنّ هوية الشاعر المغترب تولّف باندماج ثقافتين مختلفتين، لكن سطوة المكان الأمّ، والحنين بالعودة إليه يبقيان هاجس كلّ مغترب. وقد عبّر الشعراء العراقيّون المهجّرون عن مكانهم الأمّ بصورة المكان المخرب. إنّ خراب الأمكنة رافقه خراب الذّكريات والمشاعر التي اكتسبها الشاعر في تجاربه مع ذلك المكان.



إشكالية الهوية في شعر المهجر العراقي

تتعرّز قيمة الهوية لدى الإنسان في المجتمع العربي بعلاقته بالمكان؛ لأنه يعاني سطوة الكيان الجمعي عليه، وإن أي تغيرات قسرية أو اختيارية تلحق بالفضاء المكاني قد تحدث انشراحاً يحول دون ثبات الهوية (جنان محمد، ٢٠١٨: ٨٩)، وفي هذا البحث نرصد انكسار النمط السائد للدراسات النقدية التي تسلم بمقولة "أن المتتبع للشعر العراقي الحديث الاغترابي يمكنه بسهولة تلمس الحضور المهيمن للهوية الأصلية فيه، ومما لا ريب فيه أن هذا الحضور جاء ليعبر عن مدى حب الشاعر لهذه الهوية وشعوره بالاعتزاز بها والرغبة في الحفاظ عليها والتمسك بها ضد عوامل المحو التي يمكن أن تتجهها الغربية" (جميان، ٢٠١٨: ٦٠)، وكسر النمط لا يعني التشكيك في حب الشاعر العراقي المعاصر أو انتمائه لوطنه، وإنما تسليط الضوء على بعض التغيرات التي حصلت له مما دفعته إلى تفضيل مكان المهجر على المكان الاصلي.

إنّ عملية الولوج إلى محددات الشخصية وأوصافها يرتتهن دائماً بالتساؤل عن الأمكنة التي تصوغ وعي الشخصية، وتشكل وجودها عبره، وعن الأثر المتبادل بين الشخصية والأماكن التي تستوطنها، فالمكان يسهم في تكوين الشخصية وبنائها داخل العمل الأدبي؛ لأنه الفضاء الحاوي لتطلعاتها وتحولاتها، والحيز الحاد لجموحها وتحركاتها، فقد "كان المكان وما زال محوراً رئيساً في إبراز هوية الشخصية بأبعادها البيولوجية والاجتماعية والثقافية. فهو يكسب دلالاته ومفاهيمه استناداً إلى الشخصية التي تستوطن احيازه" (نعاس، ٢٠١٤: ١٣)، وإنّ معرفة وظيفة المكان في بناء الشخصية يجعل التعرف على الحركة، أو السكون، أو تفسير التحولات التي تطرأ على الشخصية أمراً يؤكد العلاقة بينهما (حسانين، ٢٠٠٤: ٣١).

فالعلاقة بين الشخصية والمكان علاقة نفسية قائمة على وعي الشخصية بعالمها المحيط، إذ إنّ "سطوة المكان تتعدى في الواقع ما يبدو على السطح من تأثيرات، وفاعليتها المباشرة إلى أعماق التكوين النفسي للشخصيات" (صبري حافظ، ١٩٨٤: ١٧٢)، فكلمًا انحسرت المسافة بين أحلام الذات والمكان أصبح الأخير أكثر ألفة وحميمية، وكلمًا ابتعدت المسافة بينهما تكونت فجوة بين أحلام الذات والمكان وانفصلت عنه، وهذا ما يكسب المكان صفة الضدية أو العداء (د.سرحان جفات، ٢٠١٥: ١٢٧).

وتكتسب الهوية الشخصية في الشعر خصوصيتها من طبيعة الشعر نفسه الذي يعتمد على التلميح والإيجاز والابتعاد عن التفصيلات والتجافي عن الجزء لصالح الكل، فالهوية في الشعر أقل فاعلية مما في السرد؛ لأن فرصتها في الفعل داخل النص السردية أعلى مما هي عليه داخل النص الشعري، فهي تمتاز بقدرتها على التحول والتأقلم مع المكان الذي تستوطنه، إلا أنها



أكثر تركيزًا وأقل تفصيلًا، من الشخصية في العمل السردي، فتحولها يلمح على شكل مفارقة في الموقف بين زمانين ومكانين مختلفين، ويكون هذا التحول بالإيجاب أو السلب على وفق ما تكتسبه الشخصية من شحنات عن ذلك المكان.

فالعلاقات المكانية عند باشلار، والتقاطبات المكانية عند يوري لوتمان، وغيرها من العلاقات المكانية التي ذكرها فلاسفة المكان ونقاده، إنما تسعى للكشف عن هوية الشخصية، فهي المعنية بإظهار أهمية المكان وشحنه بالطاقات الإيحائية التي تعزز قيمته.

لا يمكن فصل المرجعيات القبلية عن المكان الذي ينتمي إليه النص، فعند الحديث عن هوية الشعراء المغتربين لابد أن نلتزم بحدي الزمان والمكان، فالزمان العنصر المتحرك الذي يجري من دون هوادة على ربوع المكان الثابت.

وغاية البحث رصد التحولات الاجتماعية التي طرأت على الشاعر المهاجر في زمنين مختلفين ومكانين متباعدين - قبل الهجرة وبعدها- والتحولات المجتمعية التي أنتجها التطور الثقافي والصناعي للمكان، ثم لا بد من الوقوف على أثر مكان الغربية - هولندا- على نفسية الشاعر، ورصد عنصري (الثبات والتحول) في شخصيته، وفي نتاجه الشعري باختلاف الأمكنة؛ لأن اختلاف الأمكنة عنصر فعال في إظهار هذه التحولات (د.علي ابراهيم، ٢٠٠٢: ٩٦)، التي تسهم من دون ريب في تحديد هوية النص الجديد.

ومكان الغربية هو مكان مشحون بالعادات والأعراف والتقاليد الاجتماعية السائدة، تكشف عنها الشيفرة المنطق عليها بين باث النص ومثليته، لذا نلاحظ أن وظيفة الشعر في ضوء نظرية الانعكاس، هي فعالية اجتماعية ذات تجربة انسانية، يهدف الشاعر من ورائها إلى تجسيد رؤيته للمكان بصورة جمالية قد تسهم في تغيير رؤيتنا للمكان والمجتمع الذي يسكنه، فهو يهدف إلى شحذ قوة ادراك المتلقي واستثارة وعيه اتجاه المكان من أجل فهم أكثر دقة بعد رصد التغييرات الحاصلة فيه (ينظر: الماضي، ١٩٩٣: ٩٢)، فالمكان لا تظهر قيمته إلا من وجهة نظر الشخص الذي يعيش فيه وتتأثر به، وبذلك يصبح المكان وسطًا حيويًا يتفاعل فيه أفراد المجتمع، وتزداد قوة تأثير المكان في الشخصية وتبلغ ذروة المكان في محاصرة الإنسان الممتد في مكان بوشائج متينة إذ يحفر المكان في أغوار الذات مسارب عميقة فتظهر سطوته وسيطرته، وعلى العكس فإن وجود فجوة بين المكان والإنسان تتضاءل على وفقها فرص هيمنة المكان؛ وبإمكان الشخصية عندئذ أن تتجاوز أمكنتها وتكتسب قيمًا جديدة من الامكنة التي تموقعت فيها" (الحميري، ٢٠١٤: ٢٢)، وإن العناية بالمكان الاجتماعي لا تعني أننا نضع أمام الاديب



وجهة نظر محددة للفهم، بل نحاول من ذلك الانفتاح على أطر جديدة للواقعة الاجتماعية بما يجعلها قادرة على استيعاب مستويات المكان والتاريخ وبكيفية فنية متطورة (ينظر: النصير، ١٩٨٦: ٥)، شريطة أن يدرك القارئ والدارس أن الأدب هو انعكاس للحالة الاجتماعية التي يمكن أن تكون دالة على صراعات طبقية ومعاناة مجتمعية تلقي بظلالها على النص الأدبي الكاشف لذلك كله.

إن العيش في مكانين مختلفين يسهم في تنشيط المخيلة على إجراء موازنات موضوعية بين المكانين المتباينين فالأول يستمد من الذاكرة ويتحقق باللغة، والثاني، المكان الوقعي الآني الذي يعيش تفاصيله الشاعر وهو مكان اللجوء أو الهجرة، فيعمل وعيه على تأنيث المكان الجديد، وشحنه بما تحمله الذاكرة عن المكان القديم من قيم ومشاعر، ويشهد التنقل بين المكانين الذاكراتي والآني تحولات في قيمة المكان يرصدها الشاعر كما في النص الآتي للشاعر علي البزاز:

"مفتوحة في الصباح نوافذ البيوت المطلة

على الغريب

لكن أبوابها مغلقة، لا تعويض ولا كسب ولا مقابل في يومياتها.

ديون تلك البيوت، وعلى الغريب تسديدها" (علي البزاز، د.ت: ١٦)

يختلف إحساس الشاعر المغترب بالمكان فهو إحساس شفاف، يستشعر فيه غريبته ويستذكر القديم من أمكنته، لذا تتكشف دلالات اجتماعية مقارنة بين المكانين، وهذا ما يكشفه النص السابق، الذي رسم صورة البيت في الغربة وترك للمتلقي رصد التحولات الحاصلة بينهما، وتكشف ثنائية (المفتوح/ المغلق) هذه التحولات المجتمعية التي يتسم بها البيت، فإذا كانت النوافذ مفتوحة في بلاد الغربة وتسمح للغريب أن يطلع عليها، فإنها مغلقة عليه في مكانه الأول، لاعتبارات اجتماعية كثيرة، فالنوافذ حواجز تفصل الداخل عن الخارج، وهي وإن كانت مفتوحة، إلا أنها تحمل دلالة الانفصال بينهما، أما الأبواب فهي في الغربة مغلقة على الغريب، وهذه الصورة النسقية تخالف القيم العادات التي يتمتع بها المجتمع العراقي، فالأبواب التي تحمل دلالة الاتصال بين الخارج والداخل في المكان الذاكراتي تكون مفتوحة للغريب، وهذا ما جعل الإنسان- الشاعر يتمسك بمكانه الأول لعدم تقبل المجتمع للملاجئ الغريب بشكل كامل.



ويرصد هذا البحث علاقة الشاعر المغترب بأمكنته المختلفة، فإذا رفض بعض الشعراء الانسجام مع مكان الغربة واللجوء؛ لأن "هناك اعتقاد سائد في المنفى أنها أماكن معادية في إطارها العام" (نعاس، ٢٠١٤: ١٥) وهناك من دعا إلى التأقلم والتعايش والاندماج في المكان ومعه، فإن هناك رؤيا للمكان تجعل منه محايداً:

"الغريب هو الذي ينجذب إلى الغريب، ليس غريب المكان، بل غريب الاستقطاب في العثور على صفات الغريب. وما المكان إلا صفة إشهار، حيلة إعلان عن ظلم وتعسف. هنا تكمن قوة الغريب، في جعل المكان مطية له، وعليه، يصير مغناطيس جذب مستمرة، صفة لا مكاناً، هو قوي في الزمن ضعيف في المكان وفي فراق أبدي معه" (البزاز، د.ت: ١٦) .

فالمكان على وفق هذه الرؤيا مكان محايد، والغريب- أنا الشاعر- هي التي تمنح المكان قيمته بعد الاندماج مع الغريب الآخر، فتعيد الذات تأثيث المكان على وفق وضعه الآني، وتلبية لاحتياجاته الخاصة والعامة، فالمكان أصبح مجرد مسرح تتفد عليه الأدوار، أما الإحساس بالاعتراب فهو صفة شعورية لا مكانية؛ لأن الغريب يفقد قوته وفاعليته إذا نقل من مكانه الأول إلى بلاد الغربة.

ويبقى الإحساس المتعلق بالمكان يتوقف على ما يحس به الشاعر من غربة إزاء فقدته للمكان الذي كان يعيش فيه، والانتقال إلى مكان آخر، فيتولد عنده شعور يفقد مكانه الأول، فتبدأ عملية البوح الشعري بالكشف عن ذلك المكان على وفق تصورات مؤلمة حزينة، فلغة الحزن تكون عالية والألم ظاهر جلي، ومن هنا تكون العواطف سبيله لبلوغ لغة شعرية فنية كاشفة عن تلك التجربة التي أنتجتها.

وتتعمق رؤية الغريب بالمكان عندما يكون عنصراً فعالاً في المجتمعات المختلفة، وهو ينشر ثقافته ويلاقحها بالثقافات الأخرى، فيكون عمله كالنحلة التي تجوب الحقول وتنتقي رحيق الأزهار لتصنع العطر، فكل الأمكنة ميدان الذات وكل الثقافات محل تلاقح وتجارب؛ لأن الرؤى هي "نص ابداعي محدث بعثته إلى الظهور معطيات عصر ثقافي مختلف وتداعيات مراحل مختلفة وتلاقح ثقافات إنسانية عريقة وجديدة متباينة، فهو نص عصر العولمة الثقافية وأن التأثير فيه يتأتى من تحاور الثقافات وتتواصل التجارب على مستوى العصر الراهن" (د. رحمن غركان، ٢٠١٠: ١٦) إن انفتاح الرؤيا على الآخر نجده جلياً عند علي البزاز في نصه:

يشكل الغريب الهويات خارج سياقاتها المألوفة كمنجم تعدين



للعالم. فيه هذا الاستيعاب والتمثّل ثم التشكّل؛ لأنه آت من

مصادر عدّة. يرفض الزمن العمودي والمكان العمودي، المكان/

الإقامة، الذكريات/ المكان، وذكرياته تتصل بالزمن، ذكريات زمنية

وليست مكانية، بمعنى تحديد لهوية المكان؛ وطن، مدينة مدرسة،

وهو مؤثر في عملية إعادة إنتاج الهويات وصيرورة الزمن من

جديد، على الأقل زمانه الخاص. كتابة الغريب تشبه الغريب (البياز، د.ت: ١٧)

ويمثل هذا النص مع النصوص التي سبقت رؤية عن الغريب وهو يخوض مغامرة الغربية في البلدان الأجنبية، فإذا كان الشاعر في المكان الاليف "يصور عمودية الكائن الإنساني" (باشلار، ١٩٨٢: ٥١)، فإن الغريب في بلاد الهجرة هو النسق المغاير المحمل بالعادات والتقاليد والتجارب الشخصية والمجتمعية المختلفة التي تمثل منجمًا فكريًا مغايرًا يسعى مجتمع الغربي لاحتوائه، أو يسعى الغريب للإفادة منه داخل ذلك المجتمع؛ لأنه مرّ بمراحل متعددة وتجارب مختلفة أسهمت في تشكيل رؤيته للمكان، فهو يحاول استيعاب هذه التجارب، ثم يتمثلها في سلوكه وحياته اليومية، ومن هنا يأتي التشكّل والاندماج مع المجتمعات الجديدة، عندما يكون أكثر انفتاحًا على الآخر (ينظر: نعاس، ٢٠١٤: ١٦)، فقد أسهمت الهجرة نزوع الإنسان العراقي إلى الحرية وفجرت طاقته الإبداعية، ومكنته من اكتساب تجارب ومعارف جديدة (ينظر: الاحمد، ٢٠٠٩: ٢٨٠)؛ لأنه رفض الزمان والمكان العموديين، وأقر بالمكان الأفقي الدال على التنقل بين البلدان، فالمغترب -الشاعر- يعيش ازدواجية المكان، تلك الازدواجية تحمل في طياتها بعدًا نفسيًا واجتماعيًا يلقي بظلاله على النص الشعري، فتجعل منه نصًا منفتحًا على دلالات ومعان تكشف للقارئ عن ألم الازدواجية، فالشاعر يحس شعوريًا بعمق الأشياء ومنها (الإحساس بالمكان) حيث النشأة الأولى، فالمكان الأول: يمثل (شعرية الذاكرة) حيث النشأة والولادة والصبا وأما المكان الثاني: يمثل الحل الذي يلجأ إليه بسبب من ظروف اجتماعية قاهرة.

هوية المغترب -الشاعر- في بلاد الغربية تحدد طريقة انسجامه مع المجتمعات الجديدة، التي تنعكس بوصفها فعلًا إجرائيًا على وعي الشاعر، فقد "كان المكان وما زال محورًا رئيسًا في إبراز هوية الشخصية بأبعادها البايولوجية والاجتماعية والثقافية، فهو



يكتسب دلالاته ومفاهيمه استنادًا إلى الشخصية التي تستوطن احيازه" (نعاس، ٢٠١٤: ١٣) وتظهره جلية في كتاباته فكتابات الشاعر تعيش غربة الشعر، غريبتها وهي وليدة مجتمع ينطق بلغة غير لغة النص، لذا يجب عليه أن يعتاد في تعايشه مع الغريب أمثاله. ويتناص عبد الرحمن الماجدي مع النص القرآني للتعبير عن هذا المعنى بقوله:

يا صاحبي الغربة،

أحدكما سيأكلُ من رأس الآخر،

ولن يسقيهُ ربهُ شيئاً (الماجدي، ٢٠١٥: ٤٥).

إذ يضمن الشاعر اللفظ القرآني الوارد في قصة نبي الله يوسف (عليه السلام) في القرآن الكريم للتعبير عن دلالة مغايرة عن معناها القرآني فحتمية الزوال في غربة الشاعر مكتوبة على الصاحبين معًا فلا أمل لحياة في الغربة ولا أمل للحصول على ملذاتها وإن كانت وافرة في ذلك المكان.

ويفقد الغريب صلته بالمكان حال تركه لمكانه الأول فلا المكان الجديد يحقق طموحه في الأنا ولا المكان القديم أصبح يلبي طموحه، لذا يقول أيضًا:

أيها الغريب؟

كل بلاد تزيدُ غُربتك،

حتى وأنت بين ذوبك.

فتدثر بحنانك.

واستسلم لهذا القدر المحتوم،

كي لا تهوي في منزلق الكدر،

والندم،

والألم،



فلا مُعِينٌ وقتنْذٍ،

سوى انتظار قادم تسمع خُطاهُ،

ولا يصلُ (الماجدي، ٢٠١٤: ٤٩)

لقد بني النص على وفق تصور الشاعر لرؤية العالم، وأخذ يستكشف تلك الرؤية بوساطة الخطاب الشعري، فأحال النص على (وعي قائم) حيث البنيات الذهنية التي دلت عليه، فلغة التشاؤم واليأس هيمنت على القصيدة، فالشاعر من خلال تلك البنيات من مثل "كل بلاد تزيدُ غُرْبَتِكَ" و "واستسلم لهذا القدر المحتوم" و "كي لا تهوي في منزلق الكدر" و "فلا مُعِينٌ وقتنْذٍ" و "سوى انتظار قادم تسمع خُطاهُ، ولا يصلُ"، فكل هذه البنيات الذهنية تكشف عما سمته النبوية التكوينية بالوعي القائم، فالألم والأسى والحزن كانت ماثلة فيها بسبب من مشكلات اجتماعية كانت الأزمة النفسية صدى لها.

إن الوضع الاجتماعي الذي وفره المجتمع الهولندي لبعض الشعراء العراقيين ساعدهم على الانسجام والتفاعل الإيجابي مع ذلك المجتمع؛ لذا نراهم يتخذون من المكان الجديد وطنًا يسكنون فيه ومآلاً يأوون إليه؛ لأن الوقائع الاجتماعية فرضت علي الشاعر نفسها وجعلته يقارن بين البيئتين والمجتمعين، ويرجح إحداها على الأخرى، وتلمس قيمة هذا التحول في الاختيار المكاني جليًا في نص كريم ناصر (الكهف السحيق) إذ يقول:

لا تُرْبِي كنفِي بلحمكِ المتهرِّى الذي لا أعبأ به،

لا تتكني على صخرةٍ كانت يوماً قبة،

لتحرقني الشمس في الغابة،

ما من طائر يتوارى عن كهفه

ويتوق إلى البرية..

أنا

اخترت البحيرة وليس الثكنة. (كريم ناصر، ٢٠١٧: ٤٦)



ويحمل النص في حواره مع الأنتى (الأخر أو الذات)، دلالة التحول القائم على المفارقة اللفظية للذات والمكان، فتتلاشى أهمية الجسد بوصفه مكاناً حاملاً للذات، وتتلاشى سبل اقتاعه بضرورة ذلك المكان للحفاظ على الجسد، بعد أن تحولت دلالتها بفعل الوعي المتنامي عبر الزمن من قبة إلى مجرد صخرة، ويمنح النص مبرراته التي أوصلته إلى هذا التحول الفكري في رؤيته للمكان وساكنه، والتي جعلته يختار البحيرة - المكان الهولندي - على الثكنة - المكان العراقي - وهذا التحول المكاني الذي لجأ إليه الشاعر كان سببه تراكمات نفسية داخلية، فجاء النص الشعري كاشفاً عن أزمات وآلام؛ لذلك يختار الشاعر المكان الجديد تاركاً المكان القديم.

فالنص قائم على ثلاث مهيمنات شكلت شعرية ذلك النص، المهيمن الأول: تقديم الحكمة بوساطة تصدير النص بجمل طلبية / جملة النهي (لا تربي / لا تتكئي) وهي جملة طلبية / إنشائية حققت داخل النص هذا (الوعي الممكن) حيث النزعة والرغبة نحو التحول والتغيير إلى ما هو إيجابي.

أما المهيمن الثاني فيمكن في تقديم تعليل الحكمة بوساطة لام التعليل (لتحرقني الشمس في الغابة) وبوساطة حكمة ثانية ما من طائر يتوارى عن كهفه ويتوق إلى البرية (فالطائر هو الشاعر . والمهيمن الثالث هو التدليل على المعنى من خلال الترجيح بين خيارين (اخترت البحيرة وليس الثكنة)، وهو اختيار طبيعي، فالطير / الشاعر إنما يختار البحيرة / المكان لأنه ينشد الحرية والحرية في البحيرة وليست بالثكنة ، فالثكنة تحمل دلالة العسكرة والقتل والموت، في قبالة البحيرة.

وتتضح فكرة تفضيل المكان الجديد على المكان القديم بشكل جلي في نص عبد الرحمن الماجدي (خدمة الوطن) الذي يقول فيه:

عش، خافقاً أو ساكناً

في علوّ أو دنوّ، لوحدك

فلن نعتصم بك بعد الآن .

يا أكل أصحابي .

ألبيستا ثياب الذلة



قطفت زهرات العمر

على ندرتها .

قشعرت جلودنا بصباحاتك البالية

وخوزقتنا بساريتك .

تحمّر حين نصفر

تبيضّ حين نسوّد

تخضّر حين نتّيبسُ أمامك

لنتكرنا بحياة سوداء .

تطوطمّت علينا أيّها العلم .

انشغلنا، سنواتٍ بتنظيف ذقوننا

من ضحكك .

لستّ سوى خرقّة

سراويل حبيباتنا أزهى من ألوانها .

حمّالات صدورهن أحقّ بالنشيد .

فرفرف بعيدًا عن هوائنا .

1424

تميمة فات أوّان ربطها عاطلةً إلّا برأس رهطها (الماجدي، ٢٠١٥: ٢٧-٢٨)



وفي هذا النص الشعري يعرض الشاعر عن رؤى التمرد والتبرم من واقع معيش تحقق بوساطة قلب الذاكرة الشعرية القديمة التي شكلت هوية الفرد العراقي، فالشاعر شاكس قصيدة الزهاوي المشهورة عن العلم العراقي:

"عش هكذا في علو أيها العلم فإننا بك بعد الله نعتصم" (الزهاوي، ٢٠١٧: ٣٠١)

وأخذ يسخر من دلالاتها؛ وهذه السخرية إنما هو نتاج تحرك الوعي نحو فهم الأشياء على نحو دقيق (رؤية العالم)، فما عاد الشاعر يؤمن بالوعي القائم ويعتصم به مثل ذي قبل وما عادت تلك القداسة هي ذاتها، تحرر الفكر وحاول التخلص من القيود، ولكنه بوتيرة متصاعدة ويتحول مفاجئ أصبح الوعي القائم (العلم / الخرقه) هو ما يشكل المفارقة، أي ذهبت وتلاشت تلك القداسة؛ بسبب من أزمت الواقع ومأساة الوطن، فالشاعر حينما تعرض للعلم بهذه السخرية بوصفه يمثل رمزا للوطن/ المكان، إنما حاول أن يصنع خطابا متمردا، فبدلاً من أن يصوغه بوصفه وعياً ممكناً صاغه بوصفه وعياً قائماً؛ لإته يعبر عن حروب عبثية. وبمثل هذا الوعي يكتب ناجي رحيم نصه الآتي:

"وأنت نقيع من ألم، كيف تشرب بعد، ماذا تشرب، أية خمور تكفي

العراق، عرقك لا يكفي، من أعلى تلة للحزن ترقب حركة العالم،

كأنك تتابع فيلماً على كوكب بعيد يرفس في روحك

أية شعارات تكفي كي تتصت لأكاذيب تدعى وطن؟" (ناجي رحيم، ٢٠١٦: ٤١)

لقد بُني النص على وفق توصيفات شعرية قوامها التشخيص والكشف عن معاناة اجتماعية رازكة في المجتمع العراقي، فالشاعر يصف العراق بأنه نقيع من الألم، و الخمر تفقد قدرتها على تفعيل قدرة نسيان الألم؛ فالإحساس بالألم عنده وعي قائم، ثم يلجأ إلى توصيفات مجازية أخرى للتدليل على ذلك الألم لتكتمل الصورة ، فهو يراقب العراق من تلة الوهم واليأس، فيصل وعيه الفعلي إلى محصلة لتلك المتابعة، بأن الوطن ما هو إلا مجموعة أكاذيب، فرؤية العالم عند الشاعر قد تحولت لديه إلى رؤية استباقية، تسبق إنتاج النص حيث المشكلات والهموم .

إنّ الشخصية الإنسانية غالباً ما تتصف بالمرونة والقابلية على تغيير ذاتها لتحقيق هويتها الخاصة؛ لأنها مجموعة من العادات والسلوكيات التي من الممكن تغييرها بفعل تغير توجهات الإنسان التي يكتسبها في تعاملاته مع الآخرين؛ ولأنّها "مجموعة



صفات الإنسان ومميزاته من عقلية ونفسية وعاطفية، واجتماعية وبدنية" (نواف نصار، ٢٠٠٩)، تتأثر بمحيطها الخارجي. وللمكان والزمان أثر مهم في إحداث تحولات بالهوية؛ بفعل الاختلاط في المجتمعات؛ وبفعل تقادم الزمن الذي يغير قناعات الذات وسلوكياتها، و "إن قضية الثبات والتحول في التعامل مع المكان هو نتيجة تؤسس على ثنائية الانسجام والانفصال، ذلك أن كل انسجام بين الذات ومحيطها المكاني -بمكوناته الاجتماعية والجغرافية والفكرية- سوف يفضي إلى الثبات، أما غياب مثل هذا الانسجام فيعني انفصاماً من نوع ما بين الذات والبنية الاجتماعية أو المعرفية أو الجغرافية التي تكون مكانها، ومن ثم الإفضاء إلى التحول، الذي هو فعل تغييري يصبو إلى إعادة عافية الأواصر التي تربط الشخصية بمحيطها" (أ.د. سرحان جفات، ٢٠١٩: ٢٨)، وهذا ما نجده في نص صلاح حسن (الرجل الحلزون) إذ يقول:

"لو قيض لي ان ابدأ

حياتي من جديد

لاخترت ان اكون حلزوناً

واعيش في جسدي .

ايما اذهب

اكون في بيتي

وحين اقف

يتلاشى المكان .

لي زمن خالص

نكرياتي اصنعها بنفسي

وتاريخي اكتبه بيدي" (صلاح حسن، ٢٠١٧: ١)



فالنص يبدأ بصيغة التمني التي لو حصلت لأعدت بناء الشخصية بنحو آخر يلائم إحساسه الآني، وفعل التمني ينتقل بالشخصية نحو رسم عالم جديد ينتمي إليه الشاعر، لذا يقترح أن تكون هويته الشخصية حلزونية منطوية على نفسها، ولنا أن نتساءل مع غاستون باشلار "أية حلزونية تتجسد في الوجود الانساني!" (باشلار، ١٩٨٢: ١٩٣) فهل أن الجسد هو المكان الوحيد الذي يحقق للذات وجودها وهويتها، وهل يتوقف الاحساس بالذات في المكان الأول. إن الوجود الحلزوني للشخصية قد يبدو متماسكاً من الخارج، إلا أنه يفقد إحساسه بالهوية المشتركة مع الآخرين، فالهوية الشخصية غير المستقرة، تحاول الهروب من الواقع المعاش و"الانفصال والتحول إفساحاً عن حالة اخرى مغايرة" (أ.د. سرحان جفات، ٢٠١٩: ٢٨) ممتدة إلى مملكة الخيال التي يكون فيها المكان خاصاً، والزمن خاصاً تصنعه الذات، إذ تعمل على إنتاج تاريخها الخاص الذي يضمن خصوصية الهوية؛ ولأن المكان المجتمعي العام لصيق الإنسان ومؤثر في سلوكياته وأفعاله، والزمن لا يعود إلى الوراء ولا يمكن كتابته من دون وجود الآخرين، فلا يمكن التخلص من سلطة الزمان والمكان إلا بتحول الهوية الشخصية عن طبيعتها الاجتماعية إلى طبيعة مغايرة انعزالية تتجسد بقوله (لاخترت أن أكون حلزوناً)، ولم تغادر هذه الفكرة عند الشاعر المغترب، فإحساسه بالمكان عمل على صقل شخصيته نحو العوالم المتخيلة، بعد أن أحسَّ بوطأة المكان عليه. فيقول كريم النجار في ذلك:

"أبني في البحر بيتي

بيتني من رمال البحر

أسكنه في هدأة الريح والعاصفة

لا ضوءاً

ولا دخان

يتصاعد من أفواه العتمة والشوارع

.....

هل قلت الشوارع؟!!



البحر عميق.. لا أثر للطرقاات فيه

لا خطى العابرين

لا صفارات الإنذار تعكر صفوه

أنا حارسه الوحيد

والأسماك تلهو من حولي

القرش يمرُّ بجانبه كأنه في احتفالٍ عظيم

والحيتان..

بواخري التي فيها أرحل بين ضفّة وأخرى

تصوِّروا

ما أعظم بحري

وما أقسى أرضكم

حين تبصقون عليها بوَدِّ غريب" (كريم النجار، ٢٠٠٩: ٤٥)

يُشكل هذا النص تحوُّلاً آخر مشابهاً للتحوّل الذي يتلمسه القارئ في النص السابق، وهو تحوّل نحو عوالم مغايرة تحقّق للذات وجودها بمعزل عن الواقع المعاش. وعالم النجار، تنحو الشخصية فيه نحو الخيال، الذي يرى فيه أنّ الماء والرمال، أكثر تماسكاً وأكثر انسجاماً من عالم واقعي تفقد الشخصية فيه هويتها. فالشخصية تسعى إلى تمام الانفصال عن (العنمة والشوارع) والرحيل (بين ضفّة وأخرى)، ولا أثر فيه لخطى الآخرين عالم (أنا حارسه الوحيد)، وبذلك تنتصر الشخصية لذاتها وتحقّق انفصالها عن الواقع بكل ما يشوبه من توتر لتحقق وجودها بالانعزال عن الآخرين، فقد أسهم خيال الشاعر في رسم ذلك المكان الحلمى/ اليوتوبي الذي حققه له وجوده المقترن بالمكان الخاص.



وإن أي تغيير في الهوية لا بد له من أسباب، والغربة من أهم الأسباب التي تؤدي إلى تحولات في الهوية، فوجد الشعر قد سوغ سبب التحول نحو الهوية انطوائية. إنه الفشل الاجتماعي الذي عانى منه في حياته، فيقول:

"جربت ان اعيش كالآخرين

في بيت صغير جميل

في وطن صغير جميل

ولكن الارض ضاقت علي

لأنني أردت أن أكون سيد نفسي .

منذ ذلك الحين

ببيت داخل نفسي بيتا

ودعوت العالم كي يسكن فيه(صلاح حسن، ٢٠١٧: ٢)

والواقع المعاش الذي مرَّ به الشاعر جنح به نحو العالم المتخيل الذي تحقق الشخصية وجودها الحقيقي فيه، ففعل التجريب ارتبط بالمكان الذي يمثل ارتباطاً حقيقياً بساكنيه. والمكان الأليف البيت لم يتسع له، كما لم يتسع له المكان الاجتماعي العام، ف(الأرض ضاقت علي)، وهذا ما يؤكد الحقيقة النفسية للمكان، فالمكان يؤثر بالشخصية، خاصة إذا كان هذا المكان لا يمنع تلك الشخصية حقها في التعبير عن ذاتها، وهذا ما يدفعها نحو التحول. فبعد أن كانت الشخصية محكومة بسياقات المكان ملتزمة بقوانينه، أصبح الجسد هو مكان الشخصية الذي يحقق الوجود الفعلي لها، فتحدث المفارقة التي ترصد تحولات الشخصية في المكان، فكما أخفق المكان في منح الشخصية الألفة التي تحقق له وجوده، تنكص نحو نكران المكان والانفصال عنه(ينظر: الحميري، ٢٠١٤: ٦٥).

وهوية الشاعر المهاجر أكثر عرضة للتغير، لأنَّ مكان المنفى يفرض سلطته على ممارسات الذات وسلوكيتها ، ويتضح ذلك في نص علي بزاز(البزاز، د.ت: ٩٠):



ثواب الكاميرا.. سطوة الكود

نحن مقبلون على الإنسان الكود، العري الكود، الحجاب الكود،
الجنس الكود، وعلى الكاميرا، المراقبة. سوف تحدد عطايا
الدولة والدين والثواب، بحسب قبولنا للكود، ومدى موافقتنا
على أن نكون تحت الكاميرا، ومن ثم كالكاميرا".

يفرض المنفى سلطته على الشاعر المغترب بوصفه قوئاً خارجية تزامم الذات في حركتها وتقرض عليها سياستها الخاصة، فالنص يرصد تحول الشخصية الحرة إلى الشخصية المقننة، تلتزم بالقوانين الصارمة المفروضة في المكان، ف(نحن مقبلون)، على مكان يفرض سلطته على الحياة التي تكون مقيدة بحدود (الكود) وتحت سلطة (الكاميرا) التي ترمز إلى المراقبة التي تخترق حدود الحرية، وهي في نظر المغترب تحدث نوعاً من المفارقة؛ لأنّ طبيعة هذه الأشياء المرتبطة بالكود، في العالم المتمدن/ هولندا وجدت لضمان حرية الفرد، بينما يرى الشاعر إن هذه الحرية مقننة لا تضمن له حرية التعبير عما يريد، فالمكان ينغلق على الشخصية ويفرض سطوته عليها، فنلاحظ انتقالاً في الهوية؛ بسبب سطوة مكان الغربة التي قيضت سلطة الشخصية وحدت من تحركاتها(ينظر: العدواني، ٢٠٠٢: ٣٠) .

الخاتمة

لحظنا من تتبعنا لبعض للشعر العراقي في المهجر أنّ الشاعر اتخذ موقفاً متبايناً من مجتمع الغربة، فهو قد يميل إلى الانعزال عن المجتمع الجديد؛ لأنّه لم ينسجم معهم بسبب اختلاف العادات والتقاليد واللغة، وقد ينسجم مع ذلك المجتمع ويتفاعل معه، فيما ينظر بعض الشعراء إلى المكان بوصفه مكاناً محايداً مُفَرِّغاً من الشّحنات القبليّة، والإنسان هو الذي يفرض سلطته عليه، فلا فرق بين الوطن المهجر والوطن الأمّ، فكأنّها أماكن تحقّق للذات وجودها شريطة إبعاد سطوة الماضي، وهذا ما يبرز أهمية مكان الغربة في تحديد هوية الشاعر المغترب.



المصادر والمراجع

- الأحمد، طالب جبار، الحياة الاجتماعية للعراقيين في المهجر، المركز العراقي للمعلومات والدراسات، العراق - بغداد، ط٢، ٢٠٠٩م.
- البزاز، علي، كالأحف كالنذير مهرج في شكواي، مؤسسة الموجة الثقافية، المغرب، د.ط، د.ت.
- حسانين، محمد مصطفى علي، استعادة المكان دراسة في آليات السرد والتأويل، دائرة الثقافة والإعلام، حكومة الشارقة، د.ط، ٢٠٠٤.
- الحميري، إيناس عبد الرحيم رمضان، شعرية المكان عند ياسين النصير، اطروحة دكتوراه، كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة البصرة، ٢٠١٤.
- رحمن غركان، النص في ضيافة الرؤيا دراسة في قصيدة النثر العربية، رند للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ٢٠١٠م.
- الزهاوي، جميل صدقي، ديوان الزهاوي، المطبعة العربية بمصر، ١٣٤٣هـ - ١٩٢٤م.
- سرحان جفات سلمان، دراسات نقدية في الخطاب السردى العربي، تموز، للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ٢٠١٥م.
- سرحان جفات سلمان، مكان النص السردى في خطاب حامد الشبيب الروائى، تموز، للطباعة والنشر، والتوزيع، دمشق، ط١، ٢٠١٩م.
- صبرى حافظ، الحداثة والتجسيد المكاني، مجلة فصول، ع٤، ١٩٨٤.
- صلاح حسن، رأس في كيس، دار مقاربات، المغرب، ط١، ٢٠١٧م.



- العدوانى، معجب، تشكيل المكان وظلال العتبات، النادي الثقافى العربى، جدة، المملكة العربية السعودية، ط١، ٢٠٠٢.
- غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ط٢، ١٩٨٢م.
- فرمان، غالب طعمة، الزمان والمكان في روايات د.علي إبراهيم، الاهالي للطباعة والنشر والتوزيع، بغداد، ط١، ٢٠٠٢م.
- كريم ناصر، لا تلومي الوردة لا تأكلي العوسج، دار مخطوطات، ط١، ٢٠١٧.
- الماجدي، عبد الرحمن، المعنى في الحاشية، دار مخطوطات، لاهاي-هولندا، ط٢، ٢٠١٥م.
- الماجدي، عبد الرحمن، حروف أبجدية، دار مخطوطات، لاهاي-هولندا، ط٢، ٢٠١٤م.
- الماضى، شكري عزيز، في نظرية الادب، دار المنتخب العربى، بيروت- لبنان، ط١، ١٩٩٣م.
- ناجي رحيم، لست ممتعضًا من دفق السرد، دار مخطوطات، لاهاي-هولندا، ط١، ٢٠١٦م.
- النجار، كريم، تلك المسلة البعيدة، شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠٠٩م.
- النصير، ياسين، إشكالية المكان في النص الأدبي، دار الشؤون الثقافية العامة "آفاق عربية"، ١٩٨٦.
- نواف نصار، معجم المصطلحات الأدبية عربي-انجليزي، دار المعتز، عمان، ط١، ٢٠٠٩م.
- وليد شاكِر نعاس، المكان والزمان في النص الأدبي الجماليات والرؤيا، د. تموز، طباعة. نشر. توزيع، ط١، ٢٠١٤م.

Sources and references



- Hassanein, Muhammad Mustafa Ali, Restoring the Place: A Study in the Mechanisms of Narration and Interpretation, Department of Culture and Information, Government of Sharjah, Dr. I, 2004.
- Al-Naseer, Yassin, The Problem of Place in the Literary Text, House of General Cultural Affairs, "Arabian Horizons", 1986.
- Al-Adwani, admirer, Shaping the Place and Shadows of Thresholds, The Arab Cultural Club, Jeddah, Saudi Arabia, 1st Edition, 2002.
- Al-Najjar, Karim, That Far Obelisk, Shams for Publishing and Distribution, Cairo, 1st Edition, 2009 AD.
- Gaston Bachelard, Aesthetics of Place, translated by Ghaleb Halsa, University Foundation for Studies, Publishing and Distribution, Beirut – Lebanon, 2nd Edition, 1982 AD.
- Sabri Hafez, Modernity and Spatial Embodiment, Fosoul Magazine, Volume 4, 1984.
- Al-Majidi, Abdul Rahman, Alphabet Letters, Manuscript House, The Hague–Netherlands, 2nd Edition, 2014.
- Al-Ahmad, Talib Jabbar, The Social Life of Iraqis in the Diaspora, the Iraqi Center for Information and Studies, Iraq – Baghdad, 2nd Edition, 2009.
- Prof. Dr. Sarhan Jafat Salman, Critical Studies in the Arabic Narrative Discourse, July, for printing, publishing and distribution, Damascus, 1, 2015 AD.



- Al-Zahawi, Jamil Sidqi, Diwan Al-Zahawi, The Arab Press in Egypt, 1343 AH – 1924 AD.
- Salah Hassan, A Head in a Kiss, Dar Muqaribat, Morocco, 1st Edition, 2017.
- Farman, Ghaleb Tohme, Time and Place in the Novels of Dr. Ali Ibrahim, Al-Ahali for Printing, Publishing and Distribution, Baghdad, 1st Edition, 2002 AD.
- Al-Humairi, Enas Abdel Rahim Ramadan, The Poetry of the Place for Yassin Al-Nassir, PhD thesis, College of Education for Human Sciences, University of Basra, 2014.
- Al-Madhi, Shukri Aziz, in Theory of Literature, Dar Al-Muntakab Al-Arabi, Beirut – Lebanon, 1, 1993 AD.
- Al-Bazzaz, Ali, as creeping as a harbinger of a clown in my complaint, The Wave Cultural Foundation, Morocco, d.t., d.t.
- Farman, Ghaleb Tohme, Time and Place in the Novels of Dr. Ali Ibrahim, Al-Ahali for Printing, Publishing and Distribution, Baghdad, 1st Edition, 2002 AD.
- Al-Humairi, Enas Abdel Rahim Ramadan, The Poetry of the Place for Yassin Al-Nassir, PhD thesis, College of Education for Human Sciences, University of Basra, 2014.
- Al-Madhi, Shukri Aziz, in Theory of Literature, Dar Al-Muntakab Al-Arabi, Beirut – Lebanon, 1, 1993 AD.



- Al-Bazzaz, Ali, as creeping as a harbinger of a clown in my complaint, The Wave Cultural Foundation, Morocco, d.t., d.t. • Walid Shaker Naas, place and time in the literary text, aesthetics and vision, d. July, print. Spread. Distribution, 1st floor, 2014.
- Dr. Rahman Gharkan, the text in the hospitality of the vision, a study in the Arabic prose poem, Rand for printing, publishing and distribution, Damascus, 1, 2010 AD.